عبدالجباراليحيا ودور الفن (1)

هناك علاقة طردية بين ثقافة وحضارة الشعوب ومراحل تطور ورقيّ الفنون فيها. والمتابع لمسيرة عبدالجباراليحيا الفنية والأدبية يلاحظ تركيزه على أهمية دور الفنون وأثرها الإيجابي في المجتمع وبالأخص نشاطه المستمر في مجال الفن التشكيلي. حيث "تُساهم الفنون في خلق جوّ اجتماعيّ إيجابيّ يسوده الترابط والتآلف. و تُعتبر البرامج والفعاليّات الفنية فرصةً سانحةً لعقد علاقات جديدة وتوطيد روابط المحبة والثقة بين أفراد المجتمع و تُشعرهم بمزيد من الفخر والانتماء والحفاظ على تاريخه وتراثه وترسيخ هويته الثقافية والإعتزاز بها "(1) وتكشف لهم عن أفكار مختلفة تحفز على الإبداع وإتساع الأفق. وعلى الرغم من إهتمام عبدالجباراليحيا بالفنون قاطبة إختص بالفن التشكيلي، وبرأيه "ينبغي - بالضرورة - أن يكون الفن هادفا وعقلانيا وليس مجرد لوحة تجميلية تعلق على جدار فحسب".(2) ويُرجع الفن التشكيلي على أنه الصورة الأولى للفكرة قبل تنفيذها على أرض الواقع بل كل ما يتخيله الإنسان وما يفكر فيه من خط ولون بهدف الصناعة والإبتكار، فيذكر في إحدى الندوات "هو تصور أوليّ لأفكار المصمم والمهندس والمخترع والنجار أنه الخطوط والألوان والمساحات المتمثلة في الذهن أنه شكل هيكل الطائرة قبل أن تصبح طائرة وفي شكل السيارة في طراز الملابس وألوانها في شكل إناء فخاري أو بلاستيكي نجده في الطباعة والسينما والمسرح نجده في التعليم ووسائل الإيضاح وتربية الذوق والتذوق وعلم الجمال."(2)

وإن كانت لوحات عبدالجباراليحيا تميل إلى الواقعية والتأثيرية والسريالية والرمزية والتجريد - وكثيراً ما تجتمع هذه الإتجاهات في لوحة واحدة، كما كتب عنه الأستاذ السيد الجزايرلي "إنه يتعامل مع الصيغ الفنية المتباينة ، والمدارس والإتجاهات المختلفة بوعي عفوي، وهو إلى جانب ذلك يحاول تأسيس رؤية جمالية تخصه"(3) - فقد تعددت - ايضا - مواضيع أعماله بتنوعها حيث شملت الجوانب الذاتية والإجتماعية والفكرية. وفي صدد هذه المقالة أضيف تصنيف أخر وهو الإستشرافي والإنساني الوجداني الذاتي. وعليه سأتطرق في سياق هذه المقالة المكونة من جزئين إلى خمسة أعمال للفنان أستدل بها على دور الفن التشكيلي وأهميته في "الإرتقاء بفكر هادف نحو الخير والمحبة والجمال لسائر فئات المجتمع بذوقه وأخلاقة"(4)

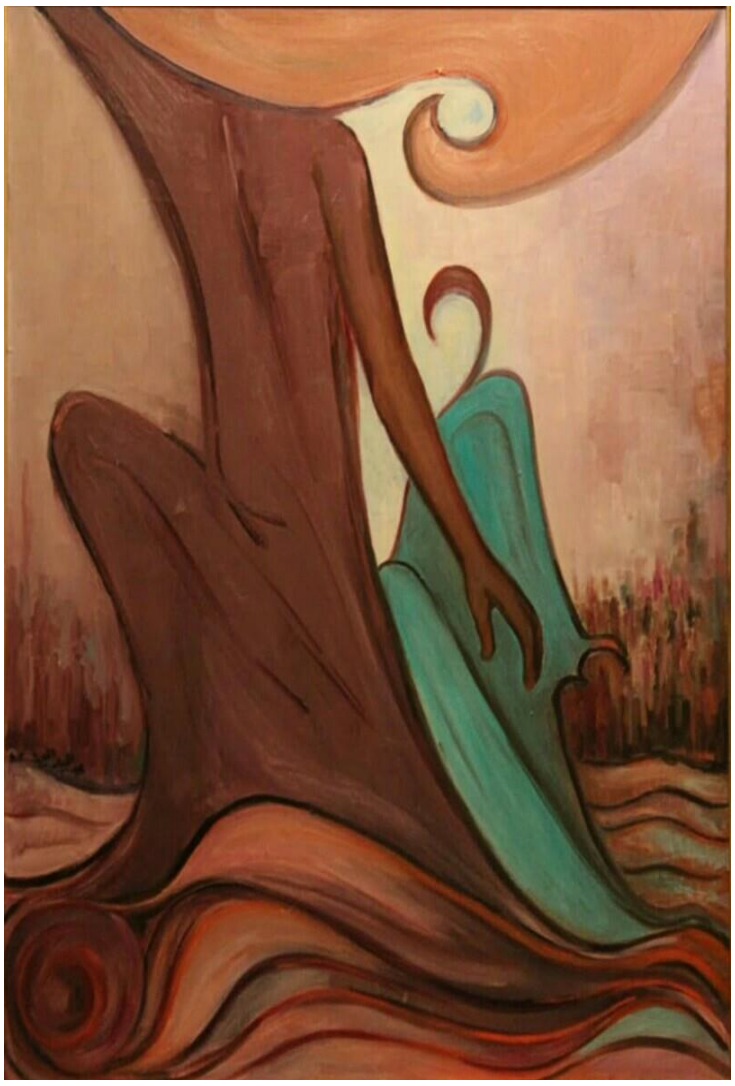

فحينما نتأمل لوحة المسيرة والرجل بثوبه البنيّ سامقا فوق سماء اللوحة والأمواج دوامة تحت قدميه وهو على ثبات واتزان المتمكن بمهارة عالية مما يدل على ثقة وسيطرة وإتقان ركوب الموج، ما يسعني الا ان أشعر بأن الأرض تحت قدميّ تغدو أكثر صلابة مما هي عليه. قيادة فذّة بيد ممتدة إلى أفق غائب عن اللوحة وبؤرتها. واليد الأخرى ممتدة براحةٍ وإرتخاء مطمئِنة بهدلها. كيف لا ينتابي شعور بالثقة والفخر في آن واحد؟ علما بأنه رسم اللوحة عام 1983 وعرضها في معرضه الرابع، ويذكر في إحدى لقائاته الصحفية آنذاك "إنني أحاول ان اعطي الجمهور فكرة عن مشاركته في بناء حياته ومن ثم بناء المجتمع عن طريق مشاركاته مع اخوانه فيما يفيد الأخرين والوسيلة الوحيدة للفنان لإبراز افكاره هي المعرض... ولم اكن منقطعا في هذه السنوات... بل كنت أستغرق في هضم هذه الفترة السابقة للخروج بشيئ جديد."(5) وإن كان يترحم على أيام البطحاء ومحلات الرسم في السبعينيات بقوله "رحم الله أيام البطحاء ومكتباتها وألوانها الزيتية والمائية الرديئة الصنع. أين نحن الآن من أيام زمان! كانت النقود الورقية تخلو من الصورة وكذلك جواز المرأة! ... وكان ... وكان."(2) فماذا سيقول الآن رحمه الله، عندما تتفوق الخدمات والأنشطة والفعاليات الثقافية في القطاع العام على القطاع الخاص لتصبح معيار الجودة الذي نحتذي به؟ هل هي رؤية إستشرافية أم الواقعية الحديثة الذي كان يذكرها في مقالاته؟ "امتدادي واقعي حديث لكنها واقعية مستقبلية تتعامل مع الواقع كما يتصوره الفنان ليس الواقع التسجيلي وإنما الواقع الذي ننشده."(6) وفي مقالة اخرى يذكر "مهمة الرسام هي نشر رسالة. الفنان الحقيقي يرى ما هو أبعد من وقته."(7) ولو تمعنّا بالخطوط والمساحات اللونية ودلالاتها الحركية والرمزية نلاحظ تمكن الرجل من تسيير الدوامة بلون ثوبه البنيّ تحت قدمه اليمنى بتلقائية وثقة المتمكن ليزيح الدكنة من أمامه بحركتة الإنسيابية ويكشف بعون القدير عن سماءٍ أكثر صفاءاً وإشراقا لمستقبل جيلٍ تكاد تكتمل حدود معالمه. رؤية ملحمية للإنسان فعلاً كما ذكر "انني أحاول أن أعطي اللوحة جوا ملحميا يدفع جمهور المعرض إلى تفحص الأعمال وتذوقها ثم مناقشتها.. إنني لا أريد ان اقدم فكرة على (طبق جاهز) فانني اريد استعمال التكوين والخطوط المتداخلة في ابراز الفكرة بانسجام مع اللون ووحدة التشكيل.. بل انه لابد من طرح الفكرة الرمزية بإسلوب واقعي حتى تقنع المشاهد لمعرضك".(5) هذه لوحة المسيرة رسمت في أوائل الثمانينيات قبل الألفية الثانية، وما زالت تحاكي واقعا مسترسلاً وأمواجاً من الزمن مُنسابة، مزجت بين "الذاتي والجماعي".. "الخاص والعام".. "الإجتماعي والكوني". فهي مسيرة بني أدم.. مسيرة مجتمعنا بقياداتها.. مسيرة العائلة بأفرادها. وهذه الرؤية لم تكن غائبة عن الأستاذ السيد الجزايرلي بتحليله لمسيرة عبالجباراليحيا الفنية والشخصية حيث يقول فيه؛ "يحاول أن يقدم تجربته

في أطار معادلة التوجه الإنساني.. الذي يجمع الأضداد والمختلفات في سياق جمالي واحد.. وينثرها عبر فضاء تشكيلي رحب.. يزاوج بين الخاص والعام.. الذاتي والجماعي.. الإجتماعي والكوني.. ومع أن هذا التوجه الذي يعتمد الإهتمام والإنشغال بكل ما هو إنساني ومثالي وفكري.. ليس مقصورا – فقط – على تجربة اليحيا التشكيلية.. إلا أن الذي يحسب لهذا الفنان السعودي العربي.. أنه شديد الإرتباط بهويته وتاريخه وموروثه.. وفي حين ان المتأثرين بالفكر الفني الغربي.. يجدون صعوبة في إقصاء العوامل التأثيرية التي تغلغلت في فكرهم، ونضحت على فكر لوحاتهم.. بقي هو – مع قلة أخر – محافظا على مكونات هويته.. لأن أعماله لم ترتكز على التغريب والإلغاز.. حتى في إعتماده على فكر «التجريد» المعروف بتعقيداته اللونية والدلالية.."(3)

وما تفردت وحدي بإستخدام الصفة الإستشرافية لأعمال عبدالجبار اليحيا، حيث نوّه عنها – ايضا - الأستاذ كمال حمدي في كتاباته النقدية، فيبين في مقالته «للفرح بعض طقوس الحزن» الصفة الإستشرافية للفنان ويتسائل في مقالة أخرى «يصرخ النخيل» "هل كان الفنان يتشوف من سياق سياسي يجري وبشفافية غير عادية وبصيرة نافذة حادة؟" – وهذا في سياق تحليله للوحة «يصرخ النخيل» - فيسترط في نفس المقالة؛ "اليس هذا يعطي للفن قيمة أكبر من مجرد تصنيفه داخل مربعات المصطلحات ووصفه – ولو بإنتصار له – بأن فن طالع من شعور بالإنتماء؟!!".(8)

وعلى هذا النحو أدرج لوحة تحولات تحت تصنيف اللوحات الإستشرافية لأختم الجزء الأول من المقالة بقراءة أولية لعناصر اللوحة؛ مع إحتضان اليدين للأفق شمسا غامضةَ بلونها البنفسجي والبحر الهادء بصفائه ، ينساق النظر إليهما مطواع ليترقب المشهد. النقيضين والمكملين لبعضهما في سنة الحياة يهيمنان على اللوحة من جميع جوانبها ومفرداتها؛ بين اليمين واليسار في المذكر والمؤنث، وبين العلوي والسفلي في الملموس والمجرد. وهنا يوازن عبدالجبار اليحيا المساحتين العلوية والسفلى في الحوار بين العقل المادي وحذره، برسمه هاوية السفح - أعلى اللوحة - والدافع الوجداني للسعي قُدما باللونين ألأزرق والوردي متفائلاً – أسفل اللوحة -. وبعيون كأنها نوافذ وفاه مفتوح ينادي الجهة الأخرى، هل هو سجين أحلامه الوردية؟ وهي على الضفة الأخرى، من على جدار البيت تطل برأسها للمنادي، هل كانت حبيسة جدرانها الملونة بالأزرق والأصفر والأخضر والبني؟ والغريزة الإنسان تتحول يده بعد مرورها عبر الشيخ المسّن، بلون الطين تكوّن، فتمتد إلى لحظة إلتقاء اليدين تحتضن الأفق.

لوحة تحولات رسمت عام 1983 وعرضت في نفس معرضه الرابع. يتبين من واقع نعيشه بأن البحر الهادء بصفائه هي من صفات مجتمعنا بقيادته الحكيمة. طيب الله ثراه، فاننا عبدالجبار اليحيا.

المراجع

(1) إيمان شماسنة، الفن ودوره في المجتمع، الرئيسية / منوعات فنية / الفن ودوره في المجتمع، https://mawdoo3.com آخر تحديث ١٨ يوليو ٢٠٢٢
(2) عبدالجبار اليحيا، "أفاق المستقبل (الثقافة والفنون) وما يتوقع للفنون التشكيلية من تطورات وما قد يعوق هذه التطورات"، ورقة مقدمة للمشاركة في ندوة "مستقبل الثقافة في البلاد العربية"، في مكتبة الملك عبدالعزيز بالرياض، 21-26 أكتوبر 2000
(3) السيد الجزايرلي، البعد الإنساني في لوحات عبدالجبار اليحيا، مجلة البارز، بدون تاريخ
(4) عبدالجبار اليحيا، مجلة بروز، مارس 2001، العدد 19
(5) عبدالجبار اليحيى فنان سعودي يتعامل بالألوان الساخنة - الصحيفة غير معرفة، بدون تاريخ
(6) عبدالجبار اليحيا، فنانون الخليج التشكيليون في معرضهم الثامن بالقاهرة - المجلة، 23 سبتمبر 1986، العدد 345
(7) عبدالجبار اليحيا، عالم من الرمزية - إرينا روبرتسون - سعودي جازيت، 20 نوفمبر 1985
(8) كمال حمدي، يصرخ النخيل، صحيفة الرياض، 22 أغسطس 1991